قضية التكليف بين المسؤولية ودعوى الحق

صلاح الدين الجورشي ■

من بين عناصر القوة في النـص القرآني أنه أعاد صياغة فلسـفة الحياة بطريقة ربط فيها الإنسـان بخالقه بطريقة مزدوجة، فمن جهة جعله مشـدوداً إلى السـر الإلهـي في انتظار اللحظة السـرمدية التي تجعل من هذا الكائن الضعيف قريباً من القـوة المطلقة وغير المحـدودة في المـكان أو الزمان، لكنه في المقابل يعيـد القرآن الكائن البشـري إلى قلب الصـراع اليومي والمصيري، ويجعل منه إنساناً مكلفاً بخلافة اللّه على الأرض.

لمصطلح الخلافة أبعاد كثيـرة ومعانٍ متعددة، ومن يقتصر على ظاهر الكلمة قد ينتهي به المطاف إلى إسقاط الشكل على المعنى، وتغليب ظاهر اللفظ على جوهره، فيخرجه عن سياقه، وقد يفرغه من محتوياته، أو ينحرف بـه في اتجاه يختلط فيه الحق بالباطـل، أو يقلل من أهميته، ويقوم بتسـطيح مضمونه. وبدل أن يكون المصطلـح مدخلاً لبناء فلسـفة نوعية وضخمة لعلاقة الإنسـان بالوجود، يصبح مجرد إحالة على معنى باهت لا روح فيه ولا إبـداع، أو مطية لمجد شـخصي أو فئوي. لهذا

■ رئيس تحرير المرصد الديمقراطي في واشنطن.

حذر الفقيه التونسي ابن عرفة من مثل هذه الانزلاق في فهم نصوص القرآن عندما قال: «من وقف عند حدود النص ضلَّ وأضلَّ».

المفسرون ومعنى «الخلافة»

قد يُفجأ المرء عندما يعود إلى بعض تفاسير القرآن، ويطلع على ما ورد فيها من معانٍ تخص خلافة الإنسان على الأرض. فقد فسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال: «أي؛ قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل». معتمداً في ذلك على الآية الكريمة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإنعام: 165]، فهو لم ير في العبارة سوى قانون التعاقب والتحقيب الزمني. أما الإمام القرطبي فقد عاد ليختزل الأمر في دور القاضي، حين رأى أن الخليفة هو «الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ويرد عنهم المحارم والمآثم»[1]. وفي هذا السياق قال ابن جرير: «فكان تأويل الآية على هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه».

الخلافة مفهوم أشمل

الخلافة هي أولاً دليل على ثقة الخالق في مخلوقه، أخرجه من العدم ليجعل منه كائناً استثنائياً في قدراته وذكائه وبنيته النفسية والروحية والعقلية. لقد حوّل الله ضعف الإنسان إلى قوة عندما أكرمه وفوضه لتولي إدارة شؤون الدنيا والتحكم في مقدرات الأرض، وذلك بتكليف منه سبحانه، لا تستطيع أية قوة أن تمنعه عن القيام بهذه المهمة مهما كان حجم الأخطاء التي ارتكبها، أو تلك التي سيرتكبها مستقبلاً. لقد حاولت الملائكة فعل ذلك، رغم أنها جبلت على عدم الاعتراض على إرادة الله؛ لكنها لم تفلح.

1 ـ انظر تفسير ابن كثير.

سجل القرآن الكريم أسباب هذه المحاولة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. لم يكن هذا من باب الاستئذان؛ لأن الخالق يفعل ما يريد ولا معقّب لما يقرره؛ لكنه إعلام يتنزّل في سياق تهيئة الملائكة لتقبّل حدث ضخم ستكون له تداعيات كونية غير مسبوقة. لقد استغربت الملائكة أن يكون خليفة الله مخلوق مزدوج الطبيعة، يتمتع بالقدرة على فعل الشر مثلما هو قادر على فعل الخير. لم يختر الله كائناً نورانياً مفطوراً على عبادة الخالق من دون تردد أو تفكير مسبق. ولهذا السبب احتار المفسرون، وحاولوا أن يبحثوا عن تأويل يزيل هذا الاستغراب عن سلوك الملائكة، والذي يستبطن نوعاً من الاحتجاج المهذب؛ لكن تأويلات المفسرين بقيت من دون الغوص في المعاني العميقة لموقف الملائكة[1] التي ركزت في تعليلها على بُعد واحد من طبيعة الإنسان المزدوجة عندما ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. لقد عبرت الملائكة عن خوفها من طاقة العنف والتدمير الكامنة في طبيعة الإنسان قولاً ومشاعر وقدرة، وعدّت ذلك دليلاً على عدم أهلية هذا المخلوق للقيام بمهمة الخلافة التي يجب أن تكون ـ بحسب اعتقادها ـ قائمة على رسالة الحب والخير فقط.

الخلافة هي أولاً دليل على ثقة الخالق في مخلوقه، أخرجه من العدم ليجعل منه كائناً استثنائياً في قدراته وذكائه وبنيته النفسية والروحية والعقلية، لقد حوّل الله ضعف الإنسان إلى قوة عندما أكرمه

الخلافة حرية وتحرير

الخلافة لا تتحقق إلا إذا كان معها حرية في الاختيار والقرار والتوجيه وهندسة بناء الحياة الفردية والجماعية، فالذي ليست له حرية الإرادة والتخطيط والتنفيذ لا يمكن أن يكون كائناً مكلفاً. صحيح هو مطالَبٌ بطاعة

1 ـ قال ابن كثير في تفسيره: «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول؛ أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه».

خالقه، واتباع المنهج الرباني الذي وضع له؛ لكنه أيضاً مُنح حرية الاختيار بين القبول بذلك طوعاً، وَرَفْضِهِ بإرادته.

كما أن الخلافة مسؤولة عن الأفعال؛ لأن المفطور على الفعل والمجبر عليه لن يتحمّل تبعات ما يقوم به، مثله في ذلك مثل الآلة التي تنجز ما يريده مشغّلها، تعمل من دون أن تعي فعلها، في حين أن الإنسان كائن مخير في أفعاله، ومن ثم فهو مسؤول عنها أمام الله وأمام الناس بحكم كونه اجتماعياً بطبعه، يعيش ضمن مجتمع خاضع لمنظومة قيمية وتشريعية تضبط حركته، وتقيد سلوك أفراده.

الخلافة اجتهاد مطلق

تقتضي الخلافة أيضاً التمتع بحق ممارسة الاجتهاد المطلق؛ أي أن الإنسان ـ وقد منحه الله هذه الصفة وهذا الدور ـ فهو يحظى بالضرورة بالإمكانات الجسدية والعقلية والروحية التي تمكّنه من أن يستنبط من الأحكام والمفاهيم التي تجعل منه مشرعاً بامتياز. فالله هو خير الحاكمين؛ لكن ذلك لا يمنع من أن يكون الإنسان الفرد حاكماً على نفسه وعلى أسرته وعلى طائفته أو قبيلته أو مجتمعه. وسواء كان حكمة عادلاً أم ظالماً؛ فإنه في كلتا الحالتين يتحمّل تبعات ذلك، وسواء أصاب في اجتهاداته أم أخطأ، فإن عمله شاهد عليه، لكن في كل الحالات، ومهما اقترب من الكمال في حكمه أو اجتهاده، فإنه لن يصل إلى المطلق، وسيبقى داخل دائرة النسبي؛ لأن الله وحده هو خير الحاكمين.

ولأنها اجتهاد مطلق فالخلافة كذلك إبداع متواصل من أجل الارتقاء بمستوى الخلق إلى أعلى الدرجات التي تسمح بها إنسانية الإنسان. ومن هنا جاءت الحضارات لتدلل على هذا المسار الخلاق للإنسانية. عندما تعتقد بأنك خليفة الله ويسودك هذا الشعور ليتحكّم في مداركك ومشاعرك فإنك تصبح مخلوقاً مبدعاً بامتياز، لا تتوقف قدرات الخلق والابتكار عندك إلا إذا جاء أجلك وحلت ساعتك وانتهى بذلك تكليفك. فالإبداع وجه من وجوه الآيات الكريمة التي تمجّد الإنسان وتعلي من

مقامه[1]، وتجعله قادراً على اختراق المكان والزمان بخياله وبتحكمه في المادة، وتحويلها إلى طاقة أو جمال أو نحت أو أي شيء ينفع الناس[2].

الخلافة محاولة للتماهي مع الله

الخلافة مجال مفتوح للتشبه بالإله الأعظم. يتم ذلك في الحالتين، سواء عند التقرب من الله عبر العبادة وفعل الخير إلى درجة الذوبان فيه في السياق الصوفي، أو عند الغرور والاعتزاز بالإثم في لحظة القوة والانفراد بالقيادة واعتقاد المستبد بأنه قد أصبح ربّاً بين قومه، يريهم ما يراه، فلا يحق لهم مخالفة رأيه أو الخروج عن إرادته أو التجرؤ على انتقاده والتفكير في تغييره أو إصلاحه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: 38].

الخلافة اجتهاد مطلق وكذلك إبداع متواصل من أجل الارتقاء بمستوى الخلق إلى أعلى الدرجات التي تسمح بها إنسانية الإنسان. ومن هنا جاءت الحضارات لتدلل على هذا المسار الخلاق للإنسانية

وإذا كان هذا هو الوجه القبيح من الإحساس بالتأله؛ لكونه التجسيد الفعلي للاستبداد المطلق، فإنه في المقابل يمكن لهذه العلاقة ـ التي تجعل المخلوق يتشبه بخالقه أن تمده بقوة استثنائية ـ وتجعله قادراً على تذليل الجبال، والتحكم في البحار، وقهر الطبيعة وغزو الفضاء، وتحقيق المعجزات، ومحاولة تحدي قوانين الكون. كل ذلك يحدث بفضل ذلك الاقتباس من روح الله.

الخلاصة في هذا السياق أن خلافة الإنسان في الأرض تتجاوز بكثيرٍ المعاني المجرّدة التي وردت في الكثير من التفاسير، والتي أفرغت المصطلح من مضامينه العميقة، وأفقدته الشحنة الخلاّقة التي ولدها ذلك

1 ـ جاء في القرآن ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

2 ـ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70].

المشـهد العظيم، الذي ارتقى فيه هذا المخلوق من حمأ مسنون إلى مرتبة جعلته يتقـدم بقيـة المخلوقات، بمـا في ذلـك ملائكة الرحمٰـن. وعندما يسـتحضر الإنسـان دلالات هذا التكريم، فالمنتظر أن تتغير نظرته لذاته ولدوره بشـكل جوهري؛ إنه ليس مجرد رقم عابر في هذا الكون الفسـيح، ولم يكن حيوانـاً ناطقاً كما ادعى بعض الفلاسـفة، ولم يخلـق لكي يأكل ويتناسل وينهب ويسـيطر. إنما مهمته أن يعمر هذه الأرض، وأن يحميها من عوامل الاندثار، ليس فقـط بهدف ضمان بقاء السـلالة، وإنما لكي يحمي توازنات الكون، ويرسخ قيم التنوع والتكامل في الطبيعة والحياة الإنسانية.

لهذا وجه الله ﷻ الإنسـان نحو أن تكون قيادته للكون مسؤولة، حتى لا يثقب السفينة التي تحويه فيكون مآله الخسران. جاء في القرآن: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾. وهـو ما حذرت منـه الملائكة عندما أعلمها ربها بنبأ الخلافة. وقد التقط ذلك الشـيخ الطاهر بن عاشـور في تفسـيره حيث قال وقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحهـا وانتظام أمرها، وإلا لما كان للاسـتفهام المشـوب بالتعجب موقع، وهم علموا مـراد الله ذلك من تلقيهم عنه سـبحانه، أو من مقتضى حقيقة الخلافة، أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلـق الأرض وما عليها على نظم تقتضـي إرادة بقائها إلى أمد، وقد دلّت آيات كثيـرة على أن إصلاح العالم مقصد للشـارع؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالـى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ولا يـرد هنا أن هذا القول غِيبة وهم منزهـون عنها ؛ لأن ذلـك العالم ليـس عالم تكليف، ولأنـه لا غِيبة في مشـورة ونحوها كالخطبة والجرح والتعديل لتوقف المصلحة على ذكر ما في المستشار في شـأنه من النقائص، ورجحان تلك المصلحة على مفسدة ذِكْـرِ أحدٍ بما يكـره، ولأن الموصوف بذلـك غير معيـن؛ إذ الحكم على النـوع، فانتفى جميع ما يترتب على الغيبة من المفاسـد في واقعة الحال؛ فلذلك لم يحجم عنها الملائكة».

الخلافة عند سيد قطب

قبل أن يتعثر فكره، ويدخل في طريق مسدود، أدرك سيد قطب جانباً من الأبعاد الثورويــة الكامنة فــي مصطلح الخلافــة التي غفل عنهــا الكثير من المفســرين. جاء في ظلال القرآن عند شــرح آية الإعلان عن خلافة الإنسان الواردة بسورة البقرة قول صاحب التفسير: «فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشــيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب، وكشــف ما في هذه الأرض من قــوى وطاقات، وكنــوز وخامات، وتســخير هذا كله بإذن اللّه فــي المهمة الضخمة التــي وكلّها اللّه إليــه، وإذاً فهــي منزلة عظيمة: منزلــة هذا الإنســان في نظام الوجــود على هذه الأرض الفســيحة، وهــو التكريم الذي شــاءه له خالقه الكريــم، لقد خفيت علــى الملائكة حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة اللّه على يد خليفة اللّه في أرضه».

إن مهمة الإنسان أن يعمر هذه الأرض، وأن يحميها من عوامل الاندثار، ليس فقط بهدف ضمان بقاء السلالة، وإنما لكي يحمي توازنات الكون، ويرسخ قيم التنوع والتكامل في الطبيعة والحياة الإنسانية

ربط ســيد قطب الخلافة بمســألة الزواج والتناسل كوســيلة لتحقيق اســتمرارية الإنســان والحياة على الأرض، وهو محق في هذا الجانب إلى حد ما؛ لأن ذلك شــرط لا بد منه لضمان بقاء الفاعل الرئيس؛ لكن ذلك يبقى مجرد وســيلة لإنجاز مهمات أكبر من مجرد التناسل؛ فالخلافة أوسع من العملية الجنســية التــي ـ على أهميتهــا ـ تُعدّ أحد محــركات الوجود البشــري، أي أنها ليســت هدفاً في حد ذاته، بقدر ما هي شرط من بين شــروط متداخلة يفترض فيها أن تؤدي إلى الإبداع الذي أشار إليه صاحب الظلال في تفســيره. فالحديث هنا يتعلّــق بكائن اســتثنائي، وضع الكون ـ وليس الأرض فقط ـ تحت تصرفه؛ ليخلف الخالق في حســن إدارة هذا العالم المركّب والمعقّد.

انزلاق المعنى ومصادرة المصطلح

هذا هو الإطار الفلسفي العام الذي تنزلت فيها عملية الخلق والتكليف، لكن حصل انزلاق بشكل تدريجي، انتهى إلى تغييب هذا البعد الجوهري في مفهوم الخلافة، وذلك بربطه ببعد سياسي يتناقض كثيراً مع المفهوم الأصلي، وأصبح مصطلح الخليفة في المخيلة العامة يحال مباشرة إلى الحاكم حتى لو كان صاحب الشوكة.

بدأت القصة بشكل مختلف؛ إذ عندما توفي الرسول (ص)، كادت تحصل فتنة بين الأنصار والمهاجرين، عندما واجهتهم مسألة سد الفراغ الذي خلفه غياب شخصية النبي. كان ذلك أول اختبار يتعرضون له في ذلك المنعطف التاريخي الحاسم لوجودهم الجماعي. ونظرا لكونهم قد شكلوا مجتمعاً متكاملاً، فقد كان من الضروري البحث عن حاكم يدير شأن الجماعة وقيادتها. وعندما بُويع أبو بكر الصديق وَصَفُوهُ بخليفة رسول الله، أما عندما تولى عمر بن الخطاب السلطة أدركوا أن اللقب الوظيفي سيطول إذا اكتفوا بالقول بأنه خليفة خليفة رسول الله، فاستقر الرأي على وصفه بكونه «أمير المؤمنين». لكن مصطلح الخليفة فرض نفسه تاريخياً، وذلك من خلال القول بالخلفاء الراشدين عند أهل السُنَّة والجماعة، لينتقل فيما بعد إلى بقية الحكام الذين تعاقبوا على السلطة فيما بعد. كما تحوّلت الخلافة من مفهوم رمزي وروحي إلى مفهوم سياسي يرتبط مباشرة بمنظومة الحكم التي سادت تاريخياً، خاصة منذ أن استقر الحكم العضوض.

ما يهمنا في هذا السياق هو التحول الكبير الذي طرأ على مفهوم المصطلح، حتى كاد يختزل في البعد السياسي شكلاً ومضموناً. بل إن المصطلح ذاته اكتسب نوعاً من التقديس، ليس من باب الدفاع عن إعادته إلى أصله العميق الذي يرتفع بدور الإنسان ويضعه في مستوى التكليف، وإنما للتأكيد أن الخلافة هي الهيكل والنظام السياسي الوحيد والملزم شرعاً لجميع المسلمين الواجب عليهم دينياً حمايته والدفاع عنه، وأيضاً العمل على إعادته بعد سقوطه.

فعندما قرر مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة حصلت رجّة في صفوف العلماء والفقهاء وعموم المؤمنين الذين كان ولاؤهم الرمزي للخليفة العثماني، ودار يومها جدل واسع حول طبيعة الكيان الذي حُلَّ نهائياً: أكان كياناً دينياً أو سياسياً؟ كما تشكّلت حركة واسعة النطاق من الهند إلى العالم العربي ترمي إلى إعادة الخلافة.

الحركات الإسلامية ومسألة الخلافة

إن المرحلية التي بناها مؤسس حركة الإخوان لجماعته التي شكّلها بعد بضع سنوات من إلغاء الخلافة العثمانية، تقود تدريجياً بحسب هذه الدعوى إلى الوصول لاسترجاع «الخلافة» الضائعة وإن بشكلٍ جديدٍ

إن الحركات الإسلامية أو ما أصبح يُعرف بحركات الإسلام السياسي هي إحدى التعبيرات التي أنتجها الإحساس العميق بفقدان الرمزية السياسية الموحدة للمسلمين، والتي كانت ترمز إليها الآستانة بعد نفي آخر السلاطين العثمانيين وقيام الجمهورية التركية على أساس علماني. لقد اهتز الوجود المعنوي للكثيرين، ورأوا فيما حدث خيانة لا تغتفر للإسلام، وعلى هذا الأساس تكاد تجمع كل الحركات التي تفرعت عن حركة الإخوان المسلمين، أو التي تتشابه معها في المنطلقات والأهداف، حول القول بأن هدفهم الاستراتيجي والنهائي هو إعادة بناء الخلافة من جديد.

إن المرحلية التي بناها مؤسس حركة الإخوان لجماعته التي شكّلها بعد بضع سنوات من إلغاء الخلافة العثمانية، تقود تدريجياً إلى الوصول إلى استرجاع «الخلافة» الضائعة وإن بشكلٍ جديدٍ. لقد تحدث البَنَّا عن إقامة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة وصولاً إلى «إحياء الخلافة الإسلامية»، يقول في إحدى رسائله: «أيها الإخوان.. لقد أراد الله أن نرث هذه التركة المثقلة بالتبعات... وأن يشرق نور دعوتكم فى ثنايا الظلام... وأن يهيئكم الله لإعلاء كلمته وإظهار شريعته، ولإقامة دولته من جديد: وهو في هذا السياق لا يقصد فقط إقامة دولة داخل حدود مصر؛ وإنما هي منطلق لدولة أشمل بكثير، وهي الخلافة.

حزب التحرير: الخلافة أولاً

وإذا كان حسن البنا قد اكتفى بوضع المسألة كهدف بعيد المدى، ولم يتوقف عنده كثيراً نظراً لنزعته البراغماتية، فإن النبهاني الذي أسس حزب التحرير بعد ابتعاده عن الإخوان، قد جعل من إعادة الخلافة واجباً شرعياً، ووضعها كهدف إستراتيجي تدور حوله جميع الأهداف الفرعية للحزب. وعلى هذا الأساس كان الحزب من الجانب التنظيمي مفتوحاً للجميع؛ أي أنه يتجاوز الأوطان، ولا يؤمن بالحدود والجنسيات القُطْرية، ويستند إلى هيكلة هرمية دولية، ولا يقر بشرعية الدولة الوطنية التي ترسخت بعد المرحلة الاستعمارية.

يعرف حزب التحرير الخلافة بكونها «رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في الدنيا لإقامة أحكام الشرع الإسلامي وحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم»؛ أي أن الحزب يعتقد بأن المسلمين في كل أنحاء المعمورة يجب أن يقودهم شخص واحد، يقدمون له الولاء بصفته الخليفة المؤهل للنظر في قضاياهم، كما أن الحزب يؤمن بالتطابق بين الإمامة والخلافة، فيقول: «الإمامة والخلافة بمعنى واحد». فهو يرفض التمييز بين المصطلحين والمفهومين، فيختزلهما في معنى واحد، وهو معنى سياسي محدد في الحكم. كما أنه يعتقد بوجوبها شرعاً، إذ يذكر أن «إقامَة خليفةٍ فرضٌ على المسلمين كافة في جميع أقطار العالم، والقيام به كالقيام بأي فرض من الفروض التي فرضها اللّٰه على المسلمين، وهو أمر محتم لا تخيير فيه ولا هوادة، والتقصير في القيام به معصية من أكبر المعاصي يعذب اللّٰه عليها أشد العذاب»[1]. فالذي لا يعترف بالخلافة كنظام سياسي قد يجد نفسه متهماً بشبهة الوقوع في الكفر. وفي ذلك دليل على أن الرؤية السياسية قد اختلطت بالبعد العقائدي، وحددت مصير الطرفين، المدعي والموجه إليه الخطاب.

1 ـ من مقدمة كتاب «الخلافة» الصادر عن حزب التحرير.

الحاكمية واختزال الخلافة

هناك مسألة جوهرية من شأنها أن تفسر اختزال الخلافة في البعد السياسي المرتبط بالحكم، وهي مسألة بلورها أبو الأعلى المودودي، قبل أن يتلقفها سيد قطب، ويجعل منها أحد أعمدة أطروحته التي صاغها في الكثير من الكتب، وخاصة كتابه الفيصل «معالم في الطريق». يتعلّق الأمر بمصطلح الحاكمية الذي سيكيف فيما بعد مواقف واتجاهات الجماعات الراديكالية التي أصبحت اليوم تتحرك تحت راية «السلفية الجهادية».

إنّ الذي لا يعترف بالخلافة كنظام سياسي قد يجد نفسه متهماً بشبهة الوقوع في الكفر، وفي ذلك دليل على أن الرؤية السياسية قد اختلطت بالبعد العقائدي، وحددت مصير الطرفين، المدعي والموجه إليه الخطاب!

بعد التأكيد على تحكم الله في الكون انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، ينتهي أبو الأعلى المودودي إلى مفهوم الحاكمية، ويبني عليه قوله: «ونتيجة منطقية المفهوم للحاكمية أن التنظيم السياسي للحكومة الإسلامية قد سمي (الخلافة). الإنسان خليفة الله في الأرض، وكخليفة فإن مهمته في الحياة أن ينفذ ويقرر أوامر الله من حيث حاكميته، وتبعاً للقرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾».

بناءً عليه يقوم المودودي بحصر مهمة الإنسان/الخليفة، ويحددها في قوله: «الخليفة يتمتّع بحقوق معينة، ليس كحق خاص له، بل كممثل وخليفة لربه، وليست سلطته وراثية بل انتداب. وهو ليس حراً يعمل ما يريد؛ ولكن عليه أن يعمل تبعاً لتعاليم عقيدته، فإذا خالف العقيدة وادعى لنفسه القوة التي لا تخصه، وإذا خالف أوامر الله فإن سلوكه لا يتمشى ومركزه الحقيقي».

إذاً هو كائن مقيد؛ إذ «غاية الأوامر القرآنية السديدة أن الإنسان يجب أن يحقق منزلة الخلافة، وتبعاً لواجبه فإنه يجب أن يطيع أوامر الله، يتبع إرشاداته ويشيد إرادته في الأرض، وإذا عاكس الإنسان فإنه سيهوي فريسة للشيطان ـ عدو الإنسان الخالد ـ وسيضلّ».

وفي السياق نفسه أطلق المودودي مفهوم الخلافة، ورفض خصخصتها أو جعلها محتكرة من قبل المسلمين، فقال: «هذه الخلافة إنما هي خلافة عامة؛ إنها أساساً تخص كل الجنس البشري، وليست منفعة موقوفة على فرد واحد، أو عائلة، أو قبيلة، أو طبقة أو طائفة». غير أنه سرعان ما يستدرك ليعيد حصرها داخل دائرة المسلمين حين أضاف: «ولكن حيث إنها تطلب إقراراً بالله كسلطان، فإن أولئك فقط يقرون بهذا وهم المسلمون. لأي طبقة أو طائفة انتموا، لهم الحق بمزاولتها (الخلافة). ولهذا يتمتع بالخلافة كل المسلمين، وليست مقتصرة على طائفة أو طبقة أو سلالة ملكية».

وهكذا يربط المودودي الخلافة بالحكم، ومنه بالسلطة التشريعية التي هي ليست من اختصاص الإنسان، وإنما من اختصاص الله، ليصل في النهاية إلى اختزال مفهوم الخلافة في تطبيق الشريعة بعد الإيمان بالله وطاعته؛ يقول: «وكما قلنا قبلاً، فإنها تأتي من مفهوم حاكمية الله وخلافة الإنسان؛ أي أن الإنسان يجب أن يتبع القانون المعطى من الله، وهذا ما يؤكده القرآن مراراً وتكراراً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾، فتوضح هذه الآية بجلاء أن سلطة إعلان شيء ليكون حراماً أو حلالاً إنما يخصُّ الله وحده، ولا يتمتع أحد آخر حتى بجزء من ذلك، ويعني هذا أن سلطة التشريع مخولة لله وحده، ويكون مخطئاً كل من يحاول ـ من نفسه ـ أن يعلن أن شيئاً ما حرامٌ أو حلال. دعه أولاً يعترف بسلطة الله، ثم يزاول سلطة تمثيلية ليستنتج أحكاماً من تلك التي اعطاه الله إياها.

التشريع بعيداً عن المشرّع، وإعلان أشياء أنها قانونية وأخرى غير قانونية من دون إشارة إلى توجيه الله، قد وصف بأنه كالكذب على الله، وإنما يكون هذا؛ لأنه مبني إما على وجهة نظر أن الله قد ترك للإنسان الحرية ليشرع كما يريد أو عالماً بأنه لا يملك السلطة، يشرع في تعامٍ تام عن توجيه الله، حتى حيث يطلب أن يتفق التشريع وذلك التوجيه. وفي كلتا الحالتين يكذب الإنسان، وفي مكان آخر يقول القرآن: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ...﴾ (المائدة). يحذر الله هنا أن أولئك الذين لا يديرون شؤونهم تبعاً لما أنزل الله من شرع ولا يعززونه، أنهم (أولاً)

كافرون، (ثانياً) ظالمون، (ثالثاً) فاسقون. إن الذي يعصي شريعة الله مجرم ذو ثلاثة آثام: كفر وظلم وفسق»[1].

الانقلابية في الخطاب الحركي

أطلنا في التوقف عند نص المودودي؛ لأن ما توصل إليه من استنتاجات تحولت فيما بعد إلى منظومة لاهوتية وسياسية وحركية تبنتها مجموعات وحركات عديدة موزعة جغرافياً في الجسم الإسلامي، وأسس عليها بعضهم منهجاً أصبح يهدد وحدة المجتمعات الإسلامية وسلمها الأهلي من خلال تبرير اللجوء إلى العنف المسلح.

تأثر فتحي يكن بكتابات سيد قطب ورأى أن الصفة الأولى التي يجب أن تتصف بها الحركة الإسلامية المنشودة هي (الانقلابية)، فالإسلام منهج انقلابي وليس منهجاً ترقيعياً!

إن هذا التصور وضع حركات الإسلام السياسي التي تهدف إلى الوصول إلى الحكم باعتباره الوسيلة الأفضل لتحكيم الإسلام من خلال إقامة دولته، وضعها أمام إشكالية معقدة تمثلت في وضع منهج التغيير الملائم. وعلى هذا الأساس تعددت صور هذا المنهج، حيث تراوحت بين الالتزام بالتغيير السلمي وتحمل التضحيات المترتبة عن الصراع مع أنظمة الحكم، وبين التنظير للعنف تحت عنوان الجهاد، واستنزاف طاقات الأفراد والجماعات في البحث عن السلاح والتدريب عليه، وتنفيذ العمليات ضد الخصوم مما أسقط الآلاف من الضحايا في صفوف المسلمين من أمنيين وعسكريين ومدنيين.

وكلما كان الجنوح نحو الجذرية في تصور البدائل؛ شكّل ذلك مدخلاً للذهاب بعيداً في القطع مع الدولة والمجتمع، ومن ثمّ المزيد من التوغل في العزلة عن الواقع الحقيقي والمعاش. ففتحي يكن الذي تأثر بكتابات سيد قطب رأى أن «الصفة الأولى التي يجب أن تتصف بها الحركة الإسلامية المنشودة هي (الانقلابية)، فالإسلام منهج انقلابي وليس منهجاً ترقيعياً...

1 ـ أبو الأعلى المودودي، من كتابه «الآراء السياسية في القرآن».

وتحقيق المنهج الانقلابي يحتـم من ثمّ قيام تجمع حركـي انقلابي، ويتعين على الحركة التي تتصدر العمل الإسلامي أن تكون في مستوى تحقيق الانقلاب الإسـلامي وعياً ونهجاً وكفايةً». وذلك قبل أن يضيف: «إن الحركة الإسلامية هذه أحوج ما تكون إلى إسـتراتيجية انقلابية تبلغ بهـا مرحلة التنفيذ العملي لأهدافها ومبادئها.. وأعني بالإسـتراتيجية الانقلابية نظرية الحركة وأسلوبها في تغيير الواقع الجاهلي القائم بالواقع الإسـلامي المنشـود بكل ما يقتضيه هذا التغيير من فهم شـامل ودقيق للواقع القائم، وتقدير واعٍ للقوى والعوامل التي تحركه وتؤثر فيه.. ومن ثم تصور عميق للواقع الإسلامي المرتقب ومدى ما يحتاجه من كفايات وإمكانات على كل صعيد»[1].

هذه النزعة الانقلابية في الخطاب وفي آليات العمل السياسـي ليسـت سـوى محاولة لشـرح ما نظر له سـيد قطب في قوله: «إن الجهد الأصيل والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولاً إلى إقامة المجتمع الخيّر... والمجتمع الخيّر هـو الذي يقوم علـى منهج اللّه... قبـل أن ينصـرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية شخصية وفردية، عن طريق الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكـر. إنه لا جـدوى من المحـاولات الجزئية حين يفسـد المجتمع كله، وحيـن تطغى الجاهلية، وحين يقـوم المجتمع على غير منهج اللّه، وحين يتخذ له شريعة غير شريعة اللّه. فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأسـاس، وأن تنبت مـن الجذور، وأن يكـون الجهد والجهـاد لتقرير سلطان اللّه في الأرض... وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً يرتكز على أساس.

ويضيف: «إنـه لا جدوى من ضياع الجهد... جهـد الخيرين الصالحين من الناس... في مقاومـة المنكرات الجزئية الناشـئة بطبيعتها من المنكر الأول: منكـر الجرأة على اللّه وادعاء خصائـص الألوهية ورفض ألوهية اللّه برفض شـريعته للحياة... لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول بلا جدال»[2].

1 ـ فتحي يكن، من كتاب «نحو حركة إسلامية عالمية واحدة».
2 ـ في ظلال القرآن، الجزء الخامس.

وبذلك يكون سيد قطب قد نسف المنهج الإصلاحي القائم على السلمية والتدرج والانخراط في حركة المجتمع، والعمل على إصلاح المؤسسات من داخلها، وفتح المجال في المقابل لمنهج التغيير عبر العنف تحت غطاء الجهاد، من أجل استعادة الدورة للخلافة الضائعة.

معظم الإسلاميين ينطلقون من خلفية فكرية وسياسية تستند إلى ضرورة إحياء المشروع السياسي للخلافة، ويدخل في ذلك الإصلاحيون منهم. ولهذا لم يكن من باب الصدفة أن يستحضر الإخوان بعد نجاح محمد مرسي في الوصول إلى منصب رئاسة الجمهورية مسألة الخلافة؛ فالمرشد المؤسس حسن البنا قد جعل من مبدأ إعادة الخلافة الإسلامية هدفاً نهائياً لدعوته، ووضع لتحقيق ذلك مراحل لا بد من توفيرها، وتحدث عنها في قوله: «إن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز للوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير في أمرها والاهتمام بشأنها... والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم. وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لا بد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد أن تسبقها خطوات؛ لا بد من تعاون ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها، يلي ذلك تكوُّن الأحلاف والمعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين البلاد، ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية[1]، حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين نتج عنه الإجماع على (الإمام) الذي هو واسطة العقد، ومجمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله على الأرض». ومن ثم بدل أن يكون الإنسان ككائن مكلف هو ظل الله في الأرض،

معظم الإسلاميين ينطلقون من خلفية فكرية وسياسية تستند إلى ضرورة إحياء المشروع السياسي للخلافة، يدخل في ذلك الإصلاحيون منهم، والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم

1 ـ هو كلام عبد الرزاق السنهوري في أطروحته للدكتوراه بباريس عن الخلافة عام 1927. وعصبة الأُمم، أو منظمة المؤتمر الإسلامي هي عنده البديل للخلافة التاريخية، وليست خطوةً باتجاهها كما ذهب لذلك البنا (المحرِّر).

اقترنت هذه الصفة الخلاّقة بشخص واحد سيقع تعيينه خليفة للمسلمين، وبذلك يلتقي الإخوان المسلمون مع حزب التحرير في الهدف النهائي!

هذا وقد حصلت إشارة عابرة لمسألة الخلافة وردت على لسان رئيس الحكومة السابق في تونس المهندس حمادي الجبالي، الذي يتحمل في الآن نفسه مهمة الأمين العام لحركة النهضة، فهو ـ بالرغم من تفتحه السياسي وانخراط حركة النهضة في عملية الانتقال الديمقراطي المرسخة للدولة الوطنية ـ قد عدّ انتصار الحركة في الانتخابات التأسيسية التي نظمت يوم 23 أكتوبر 2011م، بمثابة «الخلافة السادسة»، قالها ببراءة؛ لكنها عبّرت في لحظة النشوة بالانتصار عن المخزون الفكري والسياسي لخطاب حركي أثر في عشرات الآلاف من الأعضاء والأنصار.

الخلافة مدخل لتجديد الدورة الحضارية

قد يفهم حديثنا في هذا السياق وكأنه مناهض للنزوع نحو توحيد المسلمين باعتبارهم أمة ذات مرجعية دينية واحدة، في حين أن الغرض من هذا الاستعراض لا علاقة له بأي جهد يبذل في اتجاه مد جسور التعاون بين الشعوب الإسلامية في مرحلة تاريخية تشهد سطوة التكتلات الأمنية والاقتصادية والسياسية على الساحات الدولية. فالعمل في هذا المجال له مشروعيته الكاملة، بل ويعدّ شرطاً أساسياً من شروط اكتساب القوة والحصانة وحماية المصالح العليا لهذه الشعوب التي تتعرض للاستغلال ولمختلف أشكال الهيمنة.

إن الهدف من استعراض المواقف السابقة هو إبراز عملية الترحيل التي تمت لمسألة الخلافة بعد أن تم نقلها من بعدها اللاهوتي والفلسفي إلى البعد السياسي العملياتي الخاص بالصراع على السلطة، وببناء الدولة العالمية العقائدية. هذا الاختطاف الذي حصل لمصطلح الخلافة ومفهومها والإصرار على ربطه بمنظومة تاريخية انتهى مفعولها، كانت له تداعياته الخطيرة على أكثر من صعيد، وخاصة الصعيدين الثقافي والحضاري.

إن أي حضارة تبنى تسبقها مقدمات نظرية تؤسس لمشروع جديد، يلهم بنائيها، ويصهر شعبها أو شعوبها في مسار جديد، ويجعلها مستعدة لتقديم

تضحيات كبرى وجسيمة من أجل فرض وجودها، واحتلال موقع متقدم في العالم. ومن أهم هذه المقدمة تغيير نظرة الفرد لذاته، ونظرة الأمة لدورها.

هذا ما فعلته الأديان في جميع مراحلها، خاصة في مرحلة البعثة أو التأسيس، وهذا ما قام به الفلاسفة والحكماء والزعماء السياسيون والعسكريون الكبار عبر التاريخ. إنهم يصنعون الحلم قبل تجسيده على أرض الواقع، وذلك من خلال بناء المفاهيم والشعارات الضخمة والواعدة والمشحونة برغبة قوية في تحقيق المنعرجات التاريخية.

لقد اتسمت مرحلة الأنوار في التاريخ الحديث لأوروبا بعملية تكثيف قامت بها مجموعة متميزة من المثقفين الاستثنائيين، الذي وجهوا نقدهم للموروث الديني والاجتماعي، من أجل تحقيق القطيعة الإبستمولوجية مع المرحلة السابقة التي انتهت بأوروبا إلى حالة قصوى من التفكك والعجز والتخلف والتناحر الداخلي. وقد اتجه العديد من هذه الجهود نحو إعادة بناء صورة الإنسان لذاته من خلال تحريره من قيود الماضي التي نسجها الفكر الديني المحنط. وبعد أن كان اللّه هو مركز العالم، قام هؤلاء بجهود ضخمة من أجل تحويل الإنسان إلى أن يكون هو المركز، وهو ما ترتب عنه انقلاب جذري في تفكير الأوروبيين، سرعان ما كانت له تأثيرات ضخمة على بقية الأمم والشعوب. فجوهر دعوة عمانوئيل كانط لخّصها في قوله «خروج الإنسان من قصوره المفروض ذاتياً»، وذلك من خلال الاحتكام لعقله. لقد أصبح استعمال العقل داخل الفضاء المسيحي هو الطريق الرئيس لاكتشاف الإنسان وصوغ رسالته في الحياة والكون، ومدخله لمعرفة العلم والعالم. وكلما توغّل العقل الأوروبي في هذا الاتجاه وتمكن من تحقيق فتوحات كبرى على أكثر من صعيد؛ لكنه يقع في كل مرة في مطبات خطيرة تكشف له أوجه القصور في مغامراته؛ إلا أنه لا يستسلم، وإنما يعيد المحاولة للبحث عن الصيغ الأقوى لإبقاء الإنسان واقفاً على قدميه. إنه بحث متواصل لترسيخ فكرة خلافة الإنسان، حتى ولو لم يتم استعمال هذا المصطلح في الأدبيات الغربية، ومحاولة استثمار المعنى في معركة البحث عن هوية الفرد ورسالته.

الخلافة: هذه الفكرة الملهمة

تُعدُّ فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض من كبرى الأفكار الملهمة، والقادرة على إحداث التغييرات العظيمة، ليس فقط بالنسبة لواقع المسلمين في أي مكان، ولكنها فرصة مفتوحة لكل من يريد أن يحد من تدهور الحياة الإنسانية، ويعيد لها الدفء والحب والقوة النابعة من الذات الممتلئة بالقيم الخالدة.

إن ربط الخلافة بالتعمير من شأنه أن يضع حداً لسياسات الهيمنة التي ميّزت المسيرة الغربية منذ أربعة قرون على الأقل. فالاستعمار في المفهوم الغربي هو السيطرة على أراضي الآخرين وأوطانهم من أجل الانفراد بثرواتها لصالح الأمة المهيمنة. في حين أن التعمير هو عملية لا محدودة، تتجاوز مسألة التناسل لإبقاء الجنس البشري، لتغطي أبعاداً كثيرة يصعب حصرها في فعل واحد، يقول القرآن: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. فبعد خَلْقها بجميع ثرواتها وأسرارها، طلب من الإنسان ـ نتيجة تفويضه للخلافة ـ أن يتولى تعميرها والتصرف في كل ما فوقها وتحتها. أي مكّنه من جميع الصلاحيات التي تجعله سيداً وصاحب قرار، وهو ما عبّرت عنه كلمة التسخير التي وردت في القرآن في كثير من المواقع كشرط من شروط تحويل الخلافة إلية تنفيذ وإنجاز. لكن الإنسان الخليفة لن يتمكن من تعمير الأرض إلا إذا استعمل العقل وأحسن استثماره، واكتشف القوانين المنظمة للطبيعة ولم يصطدم بها، ثم احترم تلك القوانين وخضع لمنطقها الداخلي ولقواعدها الصارمة؛ لأنه بمخالفته لها ـ وهو قادر على ذلك ـ يضع نفسه والأرض في مخاطر قد تؤدي إلى الانتحار الجماعي. ولهذا يذكره القرآن بالقاعدة الحامية لوجوده: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾. والإصلاح هنا لا يعني تعويض دور الإنسان في التعمير، وإنما هو إشارة إلى القوانين الناظمة للحياة والطبيعة والمجتمع، وبذلك تكون الخلافة تفويضاً مطلقاً في دلالاته الرمزية حتى يثق الإنسان الفرد في ذاته وقدراته على تأثيث الوجود؛ لكنها في الحقيقة تكليف مقيد بقوانين الطبيعة وأحكام الوجود الإنساني.